بعد مطالعة «آدق العلم الحديث»[1]

العقل واسرار الطبيعة

هل يكشف العقل أسرار نفسه

تقولا حداد

استوقف تفكيري في موضوعات هذا الكتاب الجديد[1] في آننا وفي لغتنا ثلاثة موضوعات طريفان في المباحث الفلسفية التي اخذها العلم عن عالم الفلسفة وحللها على منكبه . وهما : —

الاول . مدّ الحياة في الفيروس (أدق الجرثومات التي لا تصدها مصفاة الميكروبات مهما ضاقت مسامها) . وهو اكتشاف جديد في العلم الطبي قد لا يطول العهد عليه حتى يكشف لنا حقيقة الحياة ويتسوّر على المادة

والثاني سر ارتكاز العقل في الخلايا الدماغية . فقد شرح به الاستاذ وظروف عالجة من عمليات التعقيد الاختياريين الذين حاولوا ان يقربوا بالنظرية ان الاعمال العقلية عامي بدن آلية في الدماغ والجهاز العصبي . وهو شرح فاتح طريق منوّر للمفكر في اشؤون العقلية . فعلى ان يستند هذا البحث ان يطالع فصل «عقل الانسان بين الاعصاب والغدد والميكروبات» . وهي كنت اطالع هذا الفصل كنت اتخير نفوسا كثيرة في هذا الموضوع وشأن المؤلف ويقرأ في قوله : «ان علم النفس او بالأحرى علم العقل والسيكولوجيا كان حتى اليوم مقتصرا على تعليل الظواهر العقلية وتقسيمها من شعور وتصور وتفكير وتذكر وتعقل وعواطف وانفعالات والسيكولوجيون الذين كانوا في طليعة هذا العلم يدرسون في عقولهم الظواهر العقلية ويحللونها في تجريدها وتقسيمها . وقد عرفت هذه الظواهر تعريفا نظريا . فعلماء النفس يعرفون الوعي بطريقة واسطة كما يعرفون في علم الطبيعة مثلاً . فاذا رأوا قد اتيح في يد الخالق العقلية هو ان علم النفس ما فتئ مقتصرا على دراسة الصور ولم يتعمق في البحث في حقيقة النفس ومنشئه وعلاقته بالمادة الحيوية

---

(١) المقتطف : تفضل الكاتب فهدى هذه الخواطر بكلمة عن الكتاب فاكتفينا بالاشارة اليها كما كرنا

الى الآن لم يقل لنا احد من العلماء النفسيين ما هو العقل ؟ هل هو ذاتية قائمة بنفسها ومقيمة في الجسد او في الدماغ والجهاز العصبي . او هو نتيجة تفاعلات كيميائية حيوية Biochemical في الخلايا الدماغية ؟

اما انهُ ذاتية مستقلة عن الجسد فليس من دليل قاطع عليه او برهان دامغ على وجوده بل بالعكس ان اقل خلل في الجهاز العصبي يفضي الى خلل يخل الاعمال العقلية او يوقفها ايقافاً تاماً كأن لا عقل هناك ، كالسكر والتخدير بالكلوروفورم مثلاً

وأما انهُ نتيجة تفاعلات كيميائية حيوية في خلايا الدماغ على الخصوص والجهاز العصبي على العموم فالادلة عليه وافرة . ولذلك ارى ان علم العقل يجب ان يكون باباً من ابواب علم وظائف الاعضاء (فسيولوجيا) وعلى الباحث في العقل من هذه الناحية ان يبحث في ماذا يحدث في خلايا الدماغ حين تحدث الاعمال العقلية

مثال ذلك : ماذا يحدث في مراكز دماغي حين افكر بقضية رياضية او اجتماعية او عضية وحين أكتب مقالاً وحين أتخيل اموراً خيالية وحين أتذكر الحوادث التي رأيتها قبلاً او قرأتها او سمعت بخبرها الى غير ذلك — ماذا يحدث في الخلايا الدماغية حينئذٍ ؟ هذا ما على الباحث في شؤون العقل ان يبحثه ويتحققهُ . ذلك اولاً

ثم ثانياً — ما هو المحرك في العمل او الفعل العقلي ؟ هل هو خلايا الدماغ والجهاز العصبي او هناك محرض اجنبي ؟ وما هو ؟

مثال ذلك : ما الذي يحرض خلايا على ان تتكيف بكيفية تبدي صورة خارجية تصديق عيد علي او حادث حدث لي قديماً او حل مشكلة او انتظر في قضية — كأن مضطجعاً في سريري في غلس الليل وهدوئه حيث لا شيء يرى ولا صوت يُسمع فيخطر لي ان افكر بضرب او شكل او بقضية . أفليس هناك مؤثرات خارجية حث الخلايا على ان تتكيف بتلك الصورة العقلية او هي تبديها من تلقاء نفسها ؟ هل هذا الارادة من خواصها ؟ او ما هو المحرض ؟ هذه اسئلة يتعين على الباحث العقلي ان يبحثها

نعود الى نظرية « الآلية » في الاعمال العقلية اي نظرية ان المخ يفكر وان الدماغ هو الذي يفكر في المعدة التفكير في وقت المعدة عند الجوع وحتى بعض الشعراء يصفون المعدة بأنها ان تزول ان المعدة يفكر في الموضوع

لا وانما هو وقف لان الجهاز مركب تركيباً خاصاً حيث اذا فقدت الرئتان وقف القلب عند الدور الثالث . وكذلك من الانسان . يقول السوكيون . ان صوت الحقيقة التي يسمعها والروائح التي يشمها والالوان والمشاهد التي يراها ، هي في منزلة الازرار في المعدة الكهربائي

واستجابته ه ليست الا استجابة آلية مثل استجابة المصعد لضغط الزر ؟

وخلاصة هذا القول هو ان افعال الانسان العقلية مفعولة بمحرضات خارجية تأتيه عن طريق حواسه كما ان صعود المصعد كان بمحرض خارجي عنه وهو ضغط الضاغط على زره . وبهذا التمثيل يريدون ان يبرهنوا ان الفعل العقلي هو فعل آلي

لا بدع ان يكون فعلاً آليًّا . ولكن التمثيل غير مطابق للواقع . لان هنالك ارادة تريد وتحرّض

حقيقي ان المصعد يقف عند الدور الثالث لان جهازه منظم على هذه القاعدة . ولكن ليست له ارادة للوقوف حيث يقف بل هي ارادة الشخص الذي ضغط الزر . فالمحرض له على الوقوف في الدور الثالث هو ارادة ضاغط الزر لا ارادته هو (أي المصعد) ولكن الروائح التي أشمها والمشاهدات التي اشاهدها والاصوات التي اسمعها الى غير ذلك من محرضات الشعاع التي حرّضت في افعالي العقلية ليست ارادة حملتني على فعلي العقلي ، بل هي ارادتي انا التي حملتني على ان أستجيب لهذه المحرضات . فقد لا اريد فلا تستطيع ان تحرضني قد تتطرّق الى طلبة اذني اصوات مختلفة فلا انتبه لها ولا اكترث بها كنت مستغرقاً في حل قضية هامة مثلاً

فعمل المصعد آلي محض . ولكن افعالي العقلية ليست آلية فحسب بل هنالك شيء آخر ، هو الارادة . هو هي آلية بمعنى ان عقلي يمسي استجابة لطوارىء تطرأ على مشاعري . وفي الوقت نفسه هي ارادية ايضاً . فقد اريد ان استجيب لتلك الطوارىء وقد لا اريد

اذن مورد البحث معلم ما هو الشيء الذي يحرض خلايا الدماغ على بدء الظواهر العقلية من تصور وتفكير وتذكر وغ ؟ هذا هو أعمق سر من أسرار العقل

اذا استطعنا ان نكتشف مدى يحدث في خلايا الدماغ حين تبدو الظاهرات العقلية امكننا ان نعلم المحرض الا ـ وحافز خدوشها

العقل ـ سر في خير لجاجاً عظيماً في كشف اسرار الطبيعة . ولكنه لا يزال مقصراً جداً في كشف سر نفسه

اذا كشف ـ نفسه سيكون آخر ما يبقى علينا ان يستجليه من اسرار الوجود . فمن يمكن ان يستجلي سر ؟ وكيف ؟

ليس على المصعد ان يعرف محاسن التكون حتى يكشفها كلها . انه لا يعنيه هو في تكون . ولكن ما خرج عن كونه حتى عنايته . فهو ذرة في التكون . هو جزء صغير من الوجود . وليد الوجود الاصغر . والوجود غير شاعر بوجوده . سبحان الله